محمد
جبريل

حسن فتح الباب

ظل حسن فتح الباب - حتى هزمه المرض والشيخوخة - مثلاً للمقاوم الذى يدافع عن أفكاره ومبادئه، دون أن تشغله تضحيات دفعته - أعواماً - إلى الفرار بما يؤمن به، والعمل أستاذاً للقانون الجنائى فى جامعة وهران بالجزائر.

التطورات السياسية القاسية لم ترغم حسن فتح الباب على المهادنة ولا تبديل المسار، وإن خاض كل معاركه بلغة الفارس الذى لا يميل إلى قضايا جانبية، أو يحرص على الأسهل، فينال من معارضيه بما لا يليق. وعندما أدرك عدم تكافؤ المعركة، فضل أن يحتفظ بمبادئه وصفاء نفسه، وسافر إلى مدينة عربية واصل فيها التعبير عن الهموم نفسها التى كانت نبضاً لكل أشعاره منذ عبر - فى قصائده الباكرة - عن هوية عربية، تؤمن بحضارتها وتاريخها، وتدافع عن حاضرها ومستقبلها، دون زعيق ولا إنشائية، انما هى تصدر عن نفس مواطن عربى، وتعبر عن الملايين من خور فكان أولى المدن العربية التى تشرق عليها الشمس، إلى نواكشوط آخر المدن العربية التى تغرب فيها الشمس، وإن اتجهت فى كل سطر شعرى إلى «الإنسان» حيث يقيم، بصرف النظر عن الهوية.

الشعر المهموس الذى دعا إليه أستاذنا محمد مندور هو التعبير الفنى لفتح الباب فى غالبية قصائده، ربما غلبته الحماسة، لكنه لا يجاوز الانفعال الذى واجه به المشاعل فى التاريخ الإنسانى، ما بدا أنه أقسى من أن يحتمل. هل يواجه الاستعمار بلغة متصالحة؟ هل يعتصم بصمت الفروسية عن الخيانة والأعيب الحواة؟ هل يخضع للابتزاز والأصوات العالية؟!

دافع حسن فتح الباب عن حق مصر فى مواردها، وفى خلو أرضها من أثر لأجنبى، ودافع عن عروبة الجزائر فى احتدام معاركها ضد الاحتلال الفرنسى، وشارك بإبداعه فى قضايا الوطن العربى، ذكرنا بإبداعات لوركا دفاعاً عن حرية أسبانيا، وإبداعات نيرودا المعبرة عن طموحات شعوب أمريكا اللاتينية، وقصائد أراجون المتغزلة فى عيون إلزا، والتى لم تكن سوى وطنه فرنسا حين احتله النازى، إلى جانب ما أبدعه كبار شعراء العربية: صلاح عبدالصبور ومحمود درويش وتوفيق زياد وأمل دنقل وسميح القاسم وغيرهم.

وسواء عبرت قصائد حسن فتح الباب بالهمس أو بنقيضه، فإنى أذكر أنه لم يخض يوماً معركة لها رائحة الغرض، ولا لجأ إلى مفردات ترفضها لغة الفن، وعندما أوهم نفسه - وأوهمنا - أنه سيصفى حسابه مع بعض المحسوبين على حياتنا الثقافية، واختار لما كتبه اسم «أسمى الأشياء بأسمائها» فإن كلماته لم تحاول النيل الشخصى من الصغار الذين يعانون خفوت الموهبة وانعدامها، أفلحوا بالشللية وإلحاح الزيارات الشخصية وشراء الذمم أن يحصلوا على جوائز الدولة الكبرى، ليظل حسن فتح الباب معتصماً بفروسيته، لا يحاول السير فى برك العطن حتى لا تتلوث شاعريته، ولا نفسه الرقيقة!

رحمه الله!

MLG-38@ HOTMAIL.COM